اثنا عشر كوكبا

- ٣ -

(الحالة السياسية في زمن الباعونية)

قبل ان نصف أسفار الباعونية الى مصر ثم الى حلب ثم موتها نذكر مجملاً من الحالة السياسية في بلاد الشام ومصر إذ ربما كان لسفراتها علاقة بهذه الحال كما يأتي :

كان المُلك في مصر والشام (لصلاح الدين) الايوبي واولاده واولاد اخيه الملك (العادل) الذي نحن الآن في مدرسته (العادلية) ونلتقي هذه المحاضرة بجانب ضريحه . وتسمى دولتهم (الدولة الايوبية) . ثم قام بالمُلك بعدهم مماليكهم الشراكسة واشهرهم الملك (الظاهر بيبرس) المدفون في المدرسة الظاهرية امام العادلية حيث دار الكتب العربية . ومنهم الملك (المنصور قلاوون) وابنه (الاشرف خليل) و (الظاهر برقوق) الذي بنى جسر الشريعة .

ومنهم الملك (قانصوه الغوري) وهو آخرهم . وقد استقام الملك في بني ايوب ومماليكهم الشراكسة نحو اربعة قرون : القرن السادس للهجرة والسابع والثامن والتاسع ولم يستهل القرن العاشر حتى كانت دولتهم قد هرمت وتطرق اليها الخلل والفساد وعلى العكس الدولة التركية العثمانية التي كانت تتكون يومئذ في بلاد الاناضول وتشتد وتتسع رقعة مملكتها بالتدريج .

وكان السلطان سليم العثماني معاصراً لآخر ملوك الجراكسة (قانصوه الغوري) . وفي زمن هذين السلطانين كانت عائشة الباعونية حية وقد ملأ ذكرها وفضلها مصر والشام .

حارب السلطان سليم ملك العجم (اسماعيل شاه) وكاد يتغلب عليه ويستولي على بلاده لولا ان (قانصوه الغوري) سلطان مصر كان يساعد ملك العجم ويمده سراً . فشعر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

السلطان سليم بذلك وعلم أن الاستيلاء على بلاد العجم لا يتيسر له مالم يستول على مملكة (قانصوه الغوري) التي تعترض طريقه الى بلاد العجم فرجع الى الاستانة وجهز جيشاً عرمرماً زحف به على بلاد الشام حيث يترصده عدوه الألد قانصوه الغوري وجرت بينهما معركة (مرج دابق) بقرب حلب فوقع قانصوه الغوري تحت سنابك الخيل قتيلاً . وتمزقت عساكره شذر مذر واستولى السلطان سليم على بلاد الشام ومصر من يومئذ . وذلك سنة (٩٢٢) وهي السنة التي ماتت فيها عائشة الباعونية .

(أسفار الباعونية ووفاتها)

«وهل لوفاتها علاقة بالحالة السياسية المذكورة»

مر معنا ان (الباعونية) ارسلها أهلوها في صباها الى مصر والشام لطلب العلم فنبغت هناك . وهذه اول سفرة من سفراتها وبعدها عادت فاستقرت في وطنها دمشق الشام .

وفي سنة (٩١٩) (اي قبل وفاتها بثلاث سنين) سافرت الى القاهرة . وفي الطريق أُصيبت بمؤلفاتها وقصائدها التي كانت تحملها معها . ولا نعلم كيف أُصيبت بها : فاما ان يكون أصابها مطر أتلفها . أو أغارت على القافلة عصابة من اللصوص فكانت كتب الباعونية في جملة مانهبوا وسلبوا . لكن لما ذا سافرت الباعونية الى مصر في وقت تكاد تشب نار الحرب بين السلطان سليم وبين قانصوه الغوري ؟ ؟

يفهم من كلام المؤرخ (الغزي) انها ذهبت الى مصر «لقضاء مأرب لها يتعلق بولدها» . وما هو هذا المأرب ياترى ؟؟

ليس امامنا سوى طريق التكهن في معرفة هذا المأرب : فاما أن ولدها كان تاجراً وله مشاكل مع عملائه في مصر فذهبت معه اليها لتساعده بجاهها عند ولاة الأمور . أو هو موظف في الحكومة وقد نسبوا اليه قصوراً أو تقصيراً فذهبت به لتثبت أهليته . أو تبرأ ساحته .

وما يدرينا ان يكون ابنها قد كلف الخدمة العسكرية فذهبت الى (قانصوه الغوري) ملك مصر تطلب منه ان يعفي ابن الشيخة من هذه الخدمة الشاقة التي لا يحسنها وقد يتعرض الى الهلاك بسببها وهي في حاجة اليه يخدمها . ويكفيها مؤونة العمل خارج بيتها ؟ كل ذلك مما يدخل تحت الامكان .

وكان مصاحباً لها في سفرها الى مصر (ابو الثناء محمود الحلبي رئيس ديوان الانشاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في الحكومة المصرية) فلما وصلوا جميعاً الى القاهرة أنزلها ابو الثناء في داره . واكرمها واكرم ولدها . وكانت هي من قبل مدحته بقصيدة مطلعها :

(روى البحر اخبار العطا عن ندا كمو ونشر الصبا عن مستطاب ثنا كمو)

ثم ان (ابا الثناء) قدمها الى شيخ الادب والادباء في الديار المصرية وهو (السيد الشريف عبدالرحيم العباسي) وعرفه بها فأعجب بها السيد المذكور وبعث اليها بقصيدة من بديع نظمه فاجابته بقصيدة مطلعها :

(وافت تترجم عن حبر هو البحر بديعة زانها مع حسنها الخفرُ)

ثم ارسل اليها ابو الثناء قصيدة أخرى قال في مطلعها :

(ليهنك مجدٌ طارفٌ وتليدُ يَخُصُّك آباءٌ به وجدود)

الى ان يقول مخاطباً لها :

(فياروضة العلم التي بان فضلها وليس من الفضل السري مديد)
(فمنثور ما تبديه قد ضاع نشره ومنظومه فوق النحور عقود)
(ورق المعاني فوق دوح بيانها له ببديع السجع فيه نشيد)
(اذا ماتغنى مطرباً عند ليبها تميل قلوبٌ لذةً وتميد)

فأجابته الباعونية تقول :

(تسامیتَ مرمىً للحاق بعيدُ وحسبك ما ابدعت فهو شهيدُ)
(حصلتَ على الغايات مجداً وسؤدداً وفضلاً مبيناً ليس فيه جحودُ)
(وأصبحت في روض العلوم مفكهاً تجولُ وتجني ما تشا وتفيد)
(وكم بوجيز اللفظ أشرعتَ منهلاً يطيب به للظامئين ورود)
(موارد آداب صفا سلسبيلها وحام عليها مُهتَدٍ ورشيد)

ثم رجعت الباعونية من مصر الى دمشق الشام وبقيت الى سنة (٩٢٢) .

في هذه السنة نشبت معركة (مرج دابق) بين السلطان سليم وقانصوه الغوري كما ذكرنا وقد سافرت الباعونية الى حلب في تلك السنة .

قال المؤرخ (ابن الحنبلي) : « جاءت الباعونية الى حلب سنة (٩٢٢) وكان في حلب يومئذ (السلطان الغوري) وكان لها عنده مصلحة تريد قضاءها . فاجتمع بها من وراء حجاب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كلٌّ من (البدر السيوفي) وتلميذه (الشمس السفيري) وغيرهما . ثم عادت الى دمشق وتوفيت في السنة المذكورة » . انتهى ماقاله المؤرخ ابن الحنبلي . ولم نجد طريقاً الى حلّ الطلاسم عن سفرتها الى حلب في هذا الوقت العصيب سوى طريق التكهن ايضاً فنقول :

اجتمعت الباعونية وهي في حلب مع (البدر السيوفي) وغيره من الأعيان وكأنها كلّفتهم في المصلحة التي قال عنها ابن الحنبلي : إنها انما جاءت الى حلب من أجل قضائها .

وما هي هذه المصلحة ياترى في وقت ينتظر فيه السلطان الغوري قدوم عدوه السلطان سليم ؟ ثم جاء سليم وحارب الغوري وقتله كما مر ؟ ربما كانت مصلحة الباعونيـة في هذه السفرة الى حلب تتعلق بولدها ايضاً ؟؟ .

لعل الآباء والأمهات كانوا في ذلك الوقت — وقت اشتباك الحرب في وجل شديد على اولادهم . وفلذات اكبادهم . كما خافوا عليهم في عصرنا الحاضر أي منذ بضع سنين حينما كانت الحرب ناشبة بين الترك ودول الحلفاء . وكان جمال باشا يمسك الثبان فيجندهم بالقهر .

فكم آباء وأمهات ماتوا حسرةً على اولادهم بهذا السبب . فهل يا ترى وقع شيء من هذا القبيل للباعونية ؟ فأن المؤرخ (الغزي) قال انها رجعت من حلب الى دمشق وتوفيت وذلك في نفس السنة التي قُتل فيها الغوري في مرج دابق . أعني سنة (٩٢٢) . هكذا قالوا عن وفاة الباعونية لكنهم لم يذكروا لنا سنة ولادتها . لنعلم كم عاشت من العمر .

(اين قبر الباعونية)

ماتت الباعونية في بلدها دمشق . وذلك منذ اربعمائة سنة : فاين قبرها يا تُرى .

الفصل ربيع . والهواء عليل . والبرية برّاقة . وجداول الماء خرارة . والأشجار مزينة بالأزهار . والأغصان ترقص على غناء الأطيار . ونزهة الصباح تنفي عن النفس الهموم والاكدار . نذهب الى النزهة في ضواحي دمشق يمين الجسر الأبيض ومن هناك نسلك طريق الشيخ محيي الدين الجديد مشياً على الأقدام . نصل الى نصف الطريق . نجد على يميننا زقاقاً الى البساتين . نسلك هذا الزقاق ويسمى (زقاق طاحونة الأحمر) . نمر بالطاحونة المذكورة عن يميننا . ثم بساقية ماء عن شمالنا . ثم نقف أمام باب بستان . فيقال لنا أن اسمه (بستان الباعونية) واصحابه بيت الشلبي . فتخطر ببالنا للحال شيختنا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(الباعونية) التي قرأنا تاريخها وسمعنا اخبارها فنقول في انفسنا : ياترى هل سمي هذا البستان ببستان (الباعونية) نسبة الى شيختنا المذكورة ؟ ؟

ثم نمشي قليلاً حذاء سياج البستان فنصل الى عمارة قديمة كالمدرسة الصغيرة مبنية بالحجر المنحوت وطول واجهتها نحو ١٢ ذراعاً ولها ثلاث نوافذ مسدودة بالحجر . وقد كتبت على واجهتها بحروف خط واضح جميل هذه العبارة ؟

(هذا مقام حضرة السيدة الباعونية رضي الله عنها) . فلا يبقى عندنا شك أن في هذا البناء قبر (شيختنا الباعونية) إذ أيّةُ باعونية غيرها لها مثل شهرتها في دمشق .

ثم نمشي قليلاً حذاء سياج البستان المتصل بالمدرسة فنجد في اسفل الدك حجارة منحوتة وآثار بناء . وطول هذا السياج نحو اربعين ذراعاً ولا نزال نمشي حتى نصل الى طرفه أو زاويته . فنجد أثراً يلفت النظر ويستدعي الانتباه هذا الأثر هو بقية عضادة كعضادة البوابة الكبيرة مركبة من ثلاثة احجار ضخمة وهي في ضخامتها ولونها تشبه احجار هذه المدرسة العادلية . فمن يراها يقل انها بقية بوابة بناء كان مشيداً هناك بجانب قبر الباعونية .

شيء آخر أهم : قد طُرح على الأرض بجانب العضادة حجرٌ آخر كبير طوله ذراعان وعرضه ذراع عليه كتابة بحروف نافرة منحوتة في الحجر . وهي واضحة تمام الوضوح . ومقروءة كلها سوى بعض كلمات . ويظهر من نقص الكلام أن الحجر كان طويلاً فكسر من جهة رأسه نحو ثلثه وبقي ثلثاه . والكتابة التي على طول الحجر تتركب من خمسة اسطر ويترأ الباقي منها بعد انكسار الحجر هكذا :

السطر (١) ..... رحمه ربه القدير نسل الدولة كافور الخر الحسامي .

السطر (٢) ..... خانكاه على طائفة من الصوفية المجردين باسم سكنهم .

السطر (٣) ..... المسلمين ومنه جميع المزرعة والكرم الذين بارض .

السطر (٤) ..... فمن بدله بعد ما سمعه . فانما إثمه على الذين يبدلونه .

السطر (٥) ..... من شهر رجب سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة .

وخلاصة ما يفهم من هذه الكتابة أن كافور الحسامي بنى خانكاه (اي زاوية) باسم الصوفية لتكون مسكناً لهم وانه وقف عليها مزرعة وكرماً وذلك في شهر رجب سنة ٩٢٣ اي بعد وفاة عائشة الباعونية بسنة واحدة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكن لا يوجد في هذه الكتابة ذكر لعائشة الباعونية . وانما تاريخها موافق فقط لتاريخ وفاة الباعونية . فلعل احد اهل الخير شيد هذه الزاوية على قبرها وأسكنها الصوفية يقرأون القرآن ويذكرون الله ويهدون ثواب ذلك اليها .

وبينا نحن واقفون هناك نسائل الديار . ونستنطق الأحجار . اذا جماعة من اهل الجوار الساكنين في تلك المحلة احدقوا بنا نساءً ورجالاً وكان بينهم امرأة ذات إزار ونقاب فقالت لنا ان البستان المدفونة فيه (الباعونية) ملك بيت الشلبي وان امها هي من بيت الشلبي وقد عاشت امها نحو سبعين سنة . قالت وقد أخبرتني أمي انه كان يوجد في هذا البناء المشيد بجانب قبر الباعونية فرن وقف يخبزون فيه صفيحة وشعيبيات ويفرقونها على المارين من الفقراء والمساكين مجانًا من دون ثمن ثم أخبرنا بعض الرجال المسنين مؤكداً قول المرأة الشلبية وقال انه سمع خبر الصفيحة من رجلٍ مسنٍّ وهو سمعه من رجل مسنٍّ آخر رأى الفرن بعيني رأسه .

ولعل في هذا الخبر مبالغة وأن الفرن انما كان يخبز الصفيحة والشعيبيات في بعض أيام السنة (كأيام رمضان والمولد النبوي) لا في كل يوم من أيام السنة .

وبعد أن نشاهد القبر من واجهته البرانية نتوق أن ننظر اليه والى حالته الجوانية . فيقال لنا ان الدخول اليه يكون من باب بستان الشلبي . فنرجع الى البستان وندخل اليه من بابه ثم نمشي فيه بين زريعة البصل والفول والسلق حتى نبلغ البناء الذي فيه القبر . فننزل اليه نزولاً لأن ارض البستان أعلا من أرضه . فنرى في وسط المكان قبراً متناسب الشكل وهو من الحجر النحيت . وعلى طول القبر حجر واحد بشكل جمالون [1] واحجار القبر متزعزعة متخلخلة ولولا ان هذا الجمالون الضخم قد أمسكها وحفظها والا كانت سرقت كما سرقت الأحجار الأخرى . وليس على القبر ولا في الجدران كتابة أو نقوش وليس للبناء سقف . ويظهر انه كان له سقف بدليل وجود قنطرتين من حجر كانتا تحملان السقف وما زالتا قائمتين الى اليوم . ويزعم بعض بيت الشلبي أن اجداده بنوا السقف المرة بعد المرة لكنهم كانوا كلما بنوه يصبحون فيجدونه قد تهدم وتفرقت احجاره . يعني باعجوبة

(١) الجمالون في اصطلاح الناس حجر مستطيل محدّب على شكل سنام الجمل ولعله من هذا سمي جمالون أو جملون .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سماوية . وتزور القبر معنا سيدة أفرنسية[١] فمذ ترى أنه لا سقف فوق قبر الباعونية وتسمع من ابن الشلبي أن اجداده كلما بنوه طار . وتعفّت منه الآثار تسمع ذلك فتقول مازحة : يظهر إن السيدة الباعونية لا تريد أن يسترها عن ربها ستار . ولا يحول بينها وبين السماء سقفٌ ولا أحجار .

هذا هو قبر (الباعونية) : تراه فلا نملك نفوسنا من رهبة الموت . وجلال الذكرى .

نذكر المرأة التي اذا عُدّ العلماء المؤلفون كانت واحداً منهم . واذا عُدّ الشعراء المتأدبون كانت في طليعتهم . واذا ذُكر الزهاد المتنسكون كانت لها المنزلة العظمى بينهم .

ان كانت الباعونية ماتت فان ذكرها لم يمت . وان غاب عنا جسمها . فلم يغب عنا فضلها وعلمها .

ان كانت الشجرة يبست وتحطمت وأصبحت تراباً فإن أثمار الشجرة مازالت غضة طرية بعد مرور أربعمائة سنة عليها . وكم امرأة من النساء ذات جاهٍ وعظمة ومالٍ وجمال ماتت وُنسي ذكرها اما الباعونية فانها ما زالت حية الى اليوم بفضلها . وثمرات عقلها .

اذكرن أيتها السيدات (عائشة الباعونية) . وزرن قبرها . وقصّوا على بناتكن أخبارها . وروّينهن أشعارها . ثم لعلكن تأخذكن الغيرة عليها فترممن مزارها . وتحفظن من السرقة أحجارها .

ولعمري ايتها السيدات ! إن (الباعونية) تستحق منكن اكثر من هذه العناية : لأنها رفعت قدركن في الحياة . فأحيوا ذكرها ولا تضيعوا كرامتها بعد الممات[٢] .

المغربي

---

(١) هي مادام (مريم هري) الكاتبة القصصية المشهورة وقد أقامت في سورية وفلسطين وحوران اياماً ولها كتابات وروايات قصصية عن أهل هذه البلاد .

(٢) بلغني أن طائفةً من السيدات خرجن من ردهة المحاضرة وذهبن تواً الى قبر عائشة الباعونية لزيارتها وإهداء الفواتح الى روحها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net